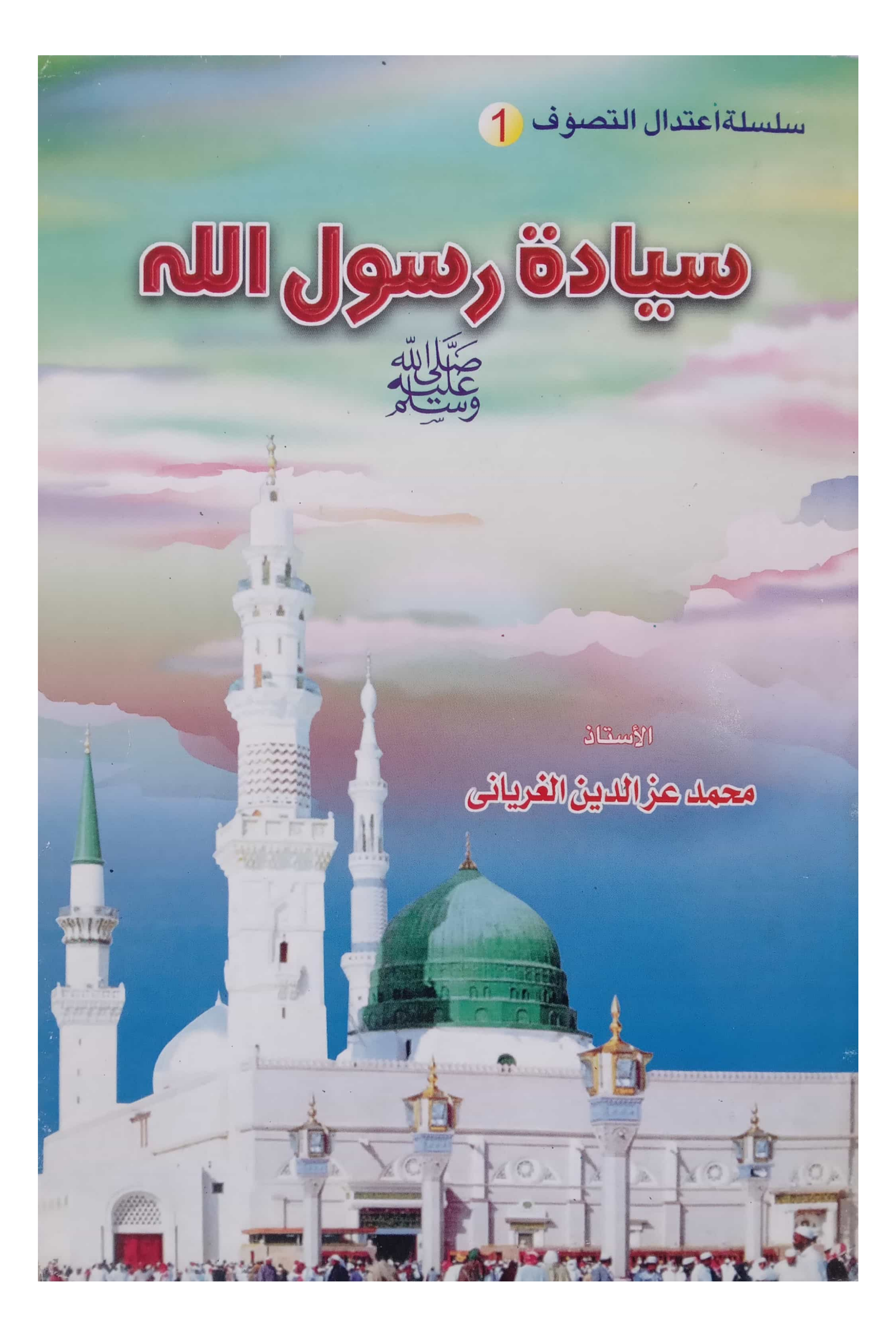

سلسلة اعتدال التصوف 1
سيادة رسول الله
صلى الله عليه وسلم
الأستاذ
محمد عز الدين الغرياني

سلسلة إعتدال التصوف

(1)

سيادة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

بقلم

الأستاذ/ محمد عز الدين الغرياني

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله والصلاة على خير خلق الله، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم وبعد،،،

فإن من الغايات التى يسعى إليها المسلم، والأهداف التى يحرص عليها المؤمن، وجود الإستقامة فيه، وإكتمال التدين عنده، ولايكتمل التدين، ولاتوجد الإستقامة إلا بالجمع بين ثلاث : العلم، العمل، والحال، فبالعلم تعرف الأحكام الشرعية، وبالعمل والتطبيق يحصل الإنتفاع بها .

وبتحقق الأحوال النفسية يحصل مايتمناه الفرد من الفوز والسبق والفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [١]

﴿لايؤمن أحدكم -أى لايكتمل إيمانه- حتى أكون أحبَّ إليه من والِده وولَده والناس أجمعين﴾ [٢].

فالفلاح منوط بالحال، والكمال مرتبط بالشعور به، والإشكالية

١- سورة المؤمنون الآية ١ ، ٢ .

٢- اللؤلؤ المرجان فيما أتفق عليه الشيخان - البخارى ومسلم - رقم ٢٧

التى تواجه المسلم متمثلة فى كيفية إحياء القيم فى نفسه، وبعث الحال فى روحه، وإجابة هذه الإشكالية، ووضع البرامج المناسبة لها، هو ما يهدف إليه علم التصوف، فهو العلم الذى يبين لك المنهج، ويحدد لك الغايات، ويدفعك إلى الكدح والسير إلى الذات العلية . ولهذا العلم وسائله المتعددة، وبرامجه المختلفة، المستقاة من الشريعة والمبنية عليها تأسيساً وغاية، وبداية ونهاية، وصورة ومضموناً .

ومن هذه الوسائل:

١- تغيير البيئة الاجتماعية .

٢- إلتزام مبدأ القدوة، ومنهج المصاحبة والمخالطة .

٣- إتباع برنامج عبادى دائم ومتواصل .

فللبيئة الصالحة عملها الفعال فى تغيير الإنسان، فالإنسان ابن بيئته، ووليد مجتمعه، ولهذا جاء فى حديث الرجل الذى قتل مائة شخص، وأراد أن يتوب ﴿أخرج من القرية الخبيثة التى فيها إلى القرية الصالحة﴾[1]، وعبارة الصحيحين: ﴿إنطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها إناساً يعبدون الله تعالى، فأعبد الله معهم﴾[2]،

١- حديث صحيح مسند الإمام أحمد ، الفتح - ١٩، ٤٣٤ .

٢- رواه البخارى ٦، ٥١٢ الأنبياء، ومسلم ١٧، ٨٤ التوبة .

لأن العواطف النبيلة، والتدين ينشآن فى أحضان المجتمعات، فحينما يشب الفرد، ويجد قومه، وقد سيطرت عليهم عاطفة دينية خاصة، ينساق فى تيارهم، ويدين بما يدينون به، ويقلدهم فى كل مظهر من مظاهره، ثم لايلبث أن يؤدى به إيحاؤهم له ومحاكاته لهم، إلى أن يصدر عنه مثل ذلك، تحت تأثير عاطفة خاصة، لاتقل صدقاً ولارقة عن عواطفهم .[١]

ولهذا حرص أهل التصوف جميعاً على إيجاد أماكن خاصة لهم، يلتقى فيها المنتسبون إليه، ويتجمعون تحت إشراف مرب كفء يقوم فيهم مقام النبى ﷺ فى أصحابه، والأب فى أبنائه، يقتدون به، ويسيرون على منواله ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ .[٢]

والقدوة والمصاحبة لهما الأثر القوى فى غرس القيم، وإيجاد الأحوال ﴿الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل﴾ .[٣]

وهذا ما أنتبه إلى منفعته السلف الصالح فأسسوا أول دويرة للتجمع والعبادة -فى زمن عبد الله بن عامر، عامل البصرة، لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أى فى زمن الصحابة والتابعين، أسسها

١- الدوافع النفسية مصطفى فهمى ١٠١ .

٢- سورة لقمان الآية رقم ١٥ .

٣- رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح رياض الصالحين مع الدليل ٢٣٣ .

زيد ابن صوحان، من أهل البصرة، من أصحاب عبد الواحد بن زيد، صاحب الحسن البصرى-[1] إلتزموا فيها العبادة، ودواموا عليها، وللمداومة أثرها فى حصول الأحوال، وإكتمال الإسلام، واستقرار الإيمان، ومعرفة الرحمان، جاء فى الحديث القدسى :﴿مايزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحببته، فكنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه﴾ .[2]

وهذا الحديث :

١- يدعو إلى تطبيق برنامج عبادى متواصل ﴿مايزال عبدى﴾ .

٢- يبين فوائد هذا التطبيق فهو :

أ- السبب فى استقرار الإيمان، لأنه ينقل المسلم من مرحلة الإيمان بالغيب إلي مرحلة الإحساس والمشاهدة، أى التحقق بالشريعة والحقيقة، لأن من معانى ﴿كنت سمعه وبصره﴾ حصول الأنوار الإلهية فى الحواس التى تساعدها على إدراك الغيب[3] والماورائى.

١- انظر مجموع الفتاوى ١١،٦ والخطط للمقريزى ٢،٤١٤ .

٢- حديث صحيح شرح السنة للبغوى ٥،١٩ - ٢٠ .

٣- بعض أنواعه .

أخرج الترمذى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقى فى الدلائل، عن أبن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءة على قبر، وهو لايحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ : «هى المنجية، تنجيه من عذاب القبر»[(١)].

فهذا الصحابى حصل له فى سمعه ما جعله يسمع من هو فى عالم البرزخ، فهو فى مستوى الإدراك كعمران بن حصين رضي الله عنه الذى كان يصافح الملائكة ويشاهدها [(٢)].

ب- يوصل المسلم إلى مرتبة الولاية التي يتولى الله فيها ذاته «كنت سمعه، وبصره ويده، ورجله...»، ومرتبة الولاية تعنى الحياة المشرقة المطمئنة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [(٣)]

جـ- يوصله إلى مقام العناية، لأن معنى أن يكون الله سمعه وبصره ويده، أنه محفوف بالعناية، مسير بها، فهى التى تدفعه

١- فتح القدير للشوكانى ٥،٢٥٧ .

٣- مجموع الفتاوى ١١،٢٧٦ .

٣- سورة البقرة، الآية ٢٥٧ .

وتهديه، وتجذبه وتأويه، وتحفظه وتحميه .

وهذا ما يجعله يشعر بالقـدرة الربانية، ويحسن بها، وبإيجادها للأعمـال، ومع دوام هذا الشعور تختـفى من الإنسان رؤية نفـسه فى التصـرف والأعمـال، وإنعدام الرؤية يعنى الوصـول إلى فناء الذات، -كما يقول علماء التصوف- ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾

وفى هذا المقام:

١- يشعر الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1]

٢- ينعـدم الخوف من غـير الله، والـرجاء فـيمـا سواه، بسـبب تجلى القدرة الإلهية له .

والمسلم حينما يرى نفسه قـائماً فى الأشياء بقدرة الله وإرادته، ويرى فى هذه القـيوميـة الخيـر، ويلمس فيـها الحكمة ولـو بعد حين، يرضى بالتدبيـر الإلهى، ويرى الفضـيلة والخير فـيما يوفـقه له الحق، ويدخله عليه، ولو كان فى ظاهر الأمر غير محبوب، فلاينزعج بفقر، ولايتبرم بمرض، ولايضـجر بفقد مال وجاه، بل تكون حـياته التسليم والرضى والهنا .

د- وعندمـا يصل إلى مـقـام العنـاية، تحـصل له المعـرفـة بالله

١- سورة النحل، الآية ٥٣ .

وصفاته إحساساً وشعوراً لما يجده بهِ من الرحمة، ومايلمسه من الكرم، وما يراه من الحفظ وما ينتفع به من القدرة، وما يكرم به من التوجيه والإختيار .

وهذا الإنعام:

١- يخلق فى نفسه الحب لربه، وعندما يعظم الحب تكتمل العبودية، فإن العبد هو الذى ملك المحبوب رقه، فلم يبق له شيء من نفسه، ومن المحبة ينشأ الزهد فيما سوى المحبوب، والحياء، والتلذذ بالخدمة والعمل، والتسلى عن المصائب، فإن المحب يجد فى لذة المحبة مايخفف عنه أثر الملمات .

٢- تعرض به النفس عما سوى اللّه، لإدراكها بإنفراده بالفعل والإيجاد .

٣- يعنى وصوله إلى مقام الفهم عن اللّه، قال الحسن بن منصور، إذا بلغ العبد مقام المعرفة، أو حى اللّه إليه بخواطره، وحرس أسراره أن يسنح فيها غير خاطر الحق،[1] وقول اللّه ﴿كنت سمه وبصره﴾ ضمان بصدق المعرفة، وتأكيد على سلامة مايراه الصالحون، وما يشاهده الربانيون .

١- مع التصوف الإسلامى ٣٠ .

هـ- يوصل الملتزمين به إلى توحد الرؤية السيكولوچية -النفسية- للقضايا لاتحاد وسيلة المعرفة ﴿كنت سمعه وبصره﴾ ولهذا تجد من يكرمون لهذه الرؤية :

١- يتوافقون فى التقويم والنظر إلى القضايا، مع إختلاف أزمانهم وأعمارهم وثقافتهم .

٢- لايقعون تحت تأثير التزيين والإنبهار، ولايؤثر فيهم مبدأ شد الإنتباه، لنفاذ بصيرتهم، وإنجلاء الحقائق لهم .

٣- يملكون المجهر، الذين يستندون إليه فى التعامل، مع ما تحمله الإذاعات من عادات وقيم وتقاليد .

و- يعطى للجتمع المسلم القدرة على مواجهة تحديات العصر، وتضييق الهوة الحضارية بينه وبين الأمم المتحضرة، لضمان الإعانة الإلهية له فى مقام المعرفة ﴿كنت سمعه وبصره﴾، وفى مقام التطبيق ﴿كنت يده ورجله﴾ .

ز- تعطى للمجتمع القدرة على أن تكو ن معارفه فى خط متواز مع التطبيق، للوعد الإلهى بذلك، فلقد جعل الله جزاء البرنامج العبادى جزاء آنياً واحداً، يحصل كله فى نفس اللحظة والزمن ﴿كنت سمعه وبصره، ويده ورجله﴾، وهذا يعنى أنه لن

تختل موازين العرض والطلب، بين تدريس العلوم، ومؤسسات التطوير التكنولوجى .

إلى غير هذا من الخيرات والبركات التى يلمسها السائرون فى الطريق والتى يعبر عنها الحديث الشريف السابق، ودراسة كتب ابن عطاء الله الإسكندرى، والإمام الغزالى، والشيخ الدباغ، والشيخ البرمونى، ووصايا الشيخ عبد السلام الأسمر، وكتب الإمام المجدد أبو العزائم، والإمام محمد زكى إبراهيم، وغيرها من الكتب النافعة، التى كتبها رجال التصوف والتى توضح ألفاظ هذا الحديث الشريف، وتصور أبعاده، تؤكد مضامينه، وإتساع عباراته، وأنه ﷺ أوتى جوامع الكلم، وأن الخير والإكرام دائم لأمته إلى يوم الدين .

خاتمة:

والخلاصة أن التصوف فى جملته بحث عن الخير، وسعى إليه، ورصد للطرق التى تؤدى إليه، فكل ما هو سبيل إلى الخير، فهو من منهج التصوف .

- فإصلاح القلوب، وعلاج ما بها من عقد وأمراض، وسيلة لإصلاح السلوك، وتغيير مسار الإنسان «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، ألا وهى القلب»، ولهذا فإصلاحه داخل

فى مناهج التصوف وأبحاثه .

- وتعظيم الحرمات باب من أبواب الخير، ومفتاح من مفاتيح العطاء ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾،[١] ولهذا أكثر القول فى كتاب التصوف عن تعظيم الحرمات، والمقدسات، والشعائر، والشخصيات الدينية من الأنبياء والرسل، والأولياء، والعلماء، والصالحين، وعن ما يحصل عليه الإنسان من هذا التعظيم، وعن ما يجده من الخذلان والخسران فى حالات التقاعص والتقصير .

- وزيارة القبور وسيلة لبعث الإيمان فى القلوب، وتجديده فى النفوس ﴿زوروا القبور فإنها تذكر الآخرة﴾،[٢] ولهذا يجعلها الصوفية من مناهجهم التى يواضبون[٣] عليها .

والزيارة لايخشى منها على الملتزمين بمنهج التصوف والشرك والكفر، لأن منهج التصوف منهج متكامل، تتعاضد مباحثه، وبرامجه وتتكامل وسائله وأدواته، ومن برامجه -كما تقدم-

---

١- سورة الحج، الآية رقم ٣٠ .

٢- بلوغ المرام ٦٠٧ .

٣- سيأتى فى هذه السلسلة إيراد الأحاديث الصحيحة المتعلقة بهذا الموضوع .

البرنامج العبادى المتواصل الذى يخلق في نفس المتصوف الإعراض عما سوى اللّه لتعلق قلبه باللّه، وإمتلاء شعوره به، فلايعود يرى فى هذا الكون خالقاً سواه، ولامدبراً غيره، كما نقل ذا النون المصرى -من أئمة التصوف- رضي الله عنه :

قوم هموهم باللّه قد علقت .·. فمالهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم .·. ياحسن مطلبهم للواحد الصمد[1]

فالصوفى حين يقوم بالزيارة يقوم بها تعبداً وإلتزاماً وأخذاً بالأسباب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[2] لأنه يعلم أنه لايستقيم السير إلى اللّه إلا إذا جمع بين التوحيد والأخذ بالأسباب التي جعلها اللّه، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم «احرص على ما ينفعك، واستعن باللّه، ولاتعجز» فأمر بالحرص على الأسباب «ماينفعك» والإستعانة بالمسبب «باللّه» ونهاه عن العجز بنوعيه :

- التقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها .

- والتقصير فى الإستعانة باللّه .

ويختلف موقف المؤمن عن موقف المشرك حين يتعامل مع الأسباب،

١- عوارف المعارف ٥٧ .

٢- سورة الفاتحة الآية ٥

فالمشرك يعتمد عليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، وأنها غنية عن المسبب، وهو اللّه .

والمسلم يتجه إليها إتجاه عبودية للّه، وإمتثال لأوامره، فى إتخاذ الأسباب مع عدم الإعتماد عليها .[1]

- وسلسلة التصوف هذه تدرس بعض هذه الوسائل، تبين مدى صحتها وتدفع عنها ما يثار من غبار، وما يقال من شبه وتشكيك، وتصحح لهذه الوسائل أحاديثها، وتبين للأمة مستندها، وتنير السبيل فى فهم الأحاديث الشريفة .

عسى الله أن يهدينا لما فيه الخير لنا والصلاح لأمتنا ..

كتبه/ محمد عز الدين الغريانى

فى بلاد تاجوراء التى هى إحدى ضواحى طرابلس الغرب

ليلة ٢٨/٩/~~٢٠٠٢~~م

2000

١- مدراج السكاكين ٣،٤٩٩ - ٥٠١



التعظيـم

التعظيم فى اللغـة التفخيـم والتكبير، والعظم خلاف الصـغر، واستعظمه رآه عظيماً[١] ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾[٢].

وعظم كل إنسـان بمجـموع مـا فـيه من السـمـات والصفـات والميزات، فكل من كان جامـعاً لها كان كبيـراً، وكان أعظم من غيره وأجل، ولهذا كان الأنبـياء أعظم من غيرهم، وكـانت الصحابة أجل من سواهم .

ووصف العظـيم لايختـص بالـلّه كـوصف الوجــود والرأفـة والرحمة والسمع والبصر ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾ بل يوصف به سبحانه كـما يوصف به خلقه مع عدم المشابهة لـه سبحانة فى ذاته وصفاته وأفعـاله، فهو يتصف بالوجود مثـلاً ونحن نتصف بالوجود، ولكن هناك مخـالفة بين الوصفين، فوجـوده تعالى واجب لا أول له ولا آخر له، ووجودنا جائز يجـوز أن يطرأ عليه فى كل لحظة العدم،

١- مادة عظم مختار القاموس والعظم غير العظمة فهى وصف ذم فى البشر .

٢- سورة القلم، الآية رقم ٤ .

ومحتاج فى استمرار وجوده إلى مدد القدرة الإلهية، وعلمه محيط لا خفاء معه بوجه من الوجوه، وهو علم ذاتى، وعلمنا مكتسب تصحبه الجهالات الكثيرة، كما قال الشاعر :

وقل لمن يدعى فى العلم معرفة

علمت شيئاً وغابت عنك أشياء

وكما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى -عليه السلام- ﴿ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى البحر﴾ [(١)].

مشروعية التعظيم:

دعت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة إلى تعظيم رسول الله ﷺ والمبالغة فى هذا التعظيم، وقام إجماع الأمة على ذلك، حتى قال الإمام السبكى : (إن هذا صار من المعلوم من الدين بالضرورة) [(٢)].

القرآن الكريم:

تعددت الآيات التى تحدثت عن سيد الخلق ﷺ وأشادت

١- البخارى - الفتح - ١،٢٣١ - ٢٣٢ فى باب ما يستحب للعالم إذا سئل .

٢- شفاء السقام فى زيارة خير الأنام، للإمام المحدث السبكى ٧١ .

بمقامه الرفيع، ومنزلته العظيمة، وشأنه الأسمى، والتى تنعته بنعوت الجمال والجلال، وتأمر أمته بتوقيره وتعظيمه، وإعتقاد تميزه عن سائر العالمين .

ومن هذه الآيات :

● قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[١]

وهذه الآية تدعو إلى تبجيل رسول الله ﷺ وتوقيره وتعظيمه والمبالغة فى ذلك :

قال ابن عباس : تعزروه : توقروه .

قال قتادة : تعظموه .

وقال الحسن : تعظموه وتفخموه .

وقال المبرد : تعزروه: تبالغوا فى تعظيمه .

وقال ابن جرير : التوقير التعظيم، الإجلال، والتفخيم .[٢]

● قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

١- سورة الفتح، الآية رقم ٨ ، ٩

٢- انظر جامع البيان ٤٧،٢٦، روح المعانى٩٦،٢٦، القرطبى ٢٦٦،١٦، الشفاء للقاضى عياض ٦٢،٢ .

تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ .[١]

هذه الآيات تنهى المسلمين عن التقدم بين يدى الله ورسوله، فلايبتدئوا بالكلام عنده، وإذا قال استمعوا له وانصتوا، ولايتعجلوا بقضاء أمر قبل قضائه، ولايسبقوه بشىء فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره، ولاينادوه باسمه نداء بعضكم بعضاً، ولكن عظموه ووقروه بأشرف ما يحب أن ينادى به .

ومعنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى النص -كما قال السلمى- اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمته .[٣]

● قال الله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ .[٣]

١- سورة الحجرات، الآية رقم ١ : ٤ .

٢- الشفاء ٢، ٦٣ .

٣- سورة النور، الآية رقم ٦٣ .

تدعوا هذه الآية -كما قال ابن عباس- بإلتزام التوقير والتعظيم فى حالة مناداة الرسول ﷺ فلايدعى باسمه، وتأمر -كما قال قتادة- بأن يبجل نبي الله ويهاب، ويعظم، ويفخم .[1]

● قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.[2]

هذه الآية تعبر عن مكانة رسول الله ﷺ العالية ومنزلته العظيمة، التى شرف الله فيها نبيه ﷺ بأعظم مما شرف به آدم -عليه السلام- الذى أمر الملائكة بالسجود له، لعدم مشاركة الله لهم الفعل .

فتشريف -كما قال الإمام سهل بن محمد- يصدر عنه تعالى، وعن الملائكة، والمؤمنين، أبلغ من تشريف تختص به الملائكة،[3] قال الحافظ السخاوى: (الإجماع منعقد على أن فى هذه الآية من تعظيم النبى ﷺ والتنويه به ما ليس فى غيرها .[4]

وهناك آيات كثيرة أخرى تتحدث عن سيد الخلق وكقوله :

١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥،٦٦ .
٢- سورة الأحزاب الآية رقم ٥٦ .
٣- المواهب اللدنية للقسطلانى ٥،١٩٠ .
٤- القول البديع ٢١ .

- ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[١]
- ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[٢]
- ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[٣]
- ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[٤]، أى لاأذكر إلا ذكرت معى كما قال مجاهد.[٥]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[٦]
- ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[٧]

ودلالة هذا النص على التعظيم إن الحلف بالشيء تعظيم له .

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾[٩] فخصه بالنداء بالوصف دون سائر المرسلين ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا ﴾[١٠]، ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[١١]، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾[١٢].

١- سورة الأنبياء، الآية رقم ١٠٧
٢- سورة القلم، الآية رقم ٤
٣- سورة النساء، الآية رقم ٦٥
٤- سورة الشرح، الآية رقم ٤
٥- الدر المنثور ٦،٦٠٤
٦- سورة الفتح، الآية رقم ١٠
٧- سورة الحجر ،الآية رقم ٧٢ .
٨- سورة الطلاق والتحريم الآية رقم ١ .
٩- سورة المائدة، الآية رقم ٤١ ، ٦٧ .
١٠- سورة هود ،الآية رقم ٤٨ .
١١- سورة المائدة ،الآية رقم ١١٧ .
١٢- سورة طه، الآية رقم ١١ ، ١٢ .

السنة النبوية:

■ عن المسور بن مخرمـة، ومروان بن الحكم في أحداث صلح الحديبية أن عروة بن مسعود حين رجع لكفار قريش بعد لقائه برسول الله ﷺ وأصحابه قال لهم: والله [١] إنِ رأيت ملكاً قطُ، يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا أخفضوا أصواتهم عنده، ما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له .[٢]

■ عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن أباه حدثه، أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ، قال: ياعبد الله، اذهب بهذا الدم، فأهرقه، حيث لايراك أحد، فلما برز عن رسول الله ﷺ عدل إلى الدم فشربه .[٣]

■ وفي رواية كيسان مولى عبد الله بن الزبير، أن رسول الله ﷺ سأله فقال: شربته؟ قال: نعم قال: لم؟ قال: أحببت أن

١- بمعنى ما، تدل على النفي .

٢- البخاري ، الفتح، ٦، ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٣- رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم وهو ثقة، مجمع الزوائد ٨، ٢٧٠ .

يكون دم رسول اللهﷺ في جوفي، فقام، وربت بيده على رأس ابن الزبير، وقال: لاتمسك النار إلا قسم اليمين.[١]

■ وأخرج الطبراني عن سفينةرضي الله عنه قال: أحتجم النبيﷺ ثم قال: خذ هذا الدم، فأدفنه من الدواب والطير والناس، فتغيبت، فشربته، ثم ذكرت ذلك له، فضحك.[٢]

■ وأخرج الطبراني، عن حكيمة بنت أميمة، عن أمها، قالت: كان للنبيﷺ قدح من عيدان يبول فيه، ويضعه تحت سريره، فقام فطلبه، فلم يجده، فسأل، فقال: أين القدح؟ قالوا: شربته سرة خادم لأم سلمة، التي قدمت معها من أرض الحبشة، فقال النبيﷺ لقد إحتضرت من النار بحضار.[٢]

■ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا جلوس في المسجد، إذ خرج رسول اللهﷺ فجلس إلينا، فكأن على رؤسنا الطير، لايتكلم أحد منا.[٤]

١- الحلية ١، ٣٣.

٢- قال الهيثمي رجال الطبراني ثقات ٨، ٢٨٠.

٣- قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل وحكيمة، وكلاهما ثقات، المرجع السابق ٨، ٢٧١.

٤- ورد مثل هذا الحديث عن اسامه بن الشريك أخرجه الطبراني وابن حبان في صحيحه، ورجال الطبراني محتج بهم في الصحيح، الترغيب ٤، ١٨٧.

■ روى البيهقى فى المدخل، والحاكم فى علوم الحديث: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافر، أى دقاً خفيفاً تعظيماً له وتكريماً وتشريفاً .

■ وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب رضي الله عنه : أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر، فأخره سنتين من مهابته .(١)

تعظيم رسول الله ﷺ بعد موته

حرمة رسول الله ﷺ باقية، وتوقيره وتعظيمه لازم، كما كان حال حياته، ويلزم التوقير -كما قال الحافظ القاضى عياض- عند ذكره -عليه السلام- وذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه، وسيرته، ومعاملة آله، وعترته، وأهل بيته، وصحابته .

قال إبراهيم التجيبى: واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذكر عنده أن يخضع، ويخضع، ويتوقر، ويسكن من حركته، ويأخذ فى هيبته وإجلاله، بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا به .

١- الشفاء ٢، ٧٠ .

■ عن عـمرو بن ميـمون قـال: إختلفـت إلى ابن مسـعود رضي الله عنه سنة، فما سمعته يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه حدث يوماً، ثم جرى على لسـانه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم علاه كـرب، حتى رأيت العرق يتحـدر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شـاء الله تعالى، أو فوق ذا، أو مـا هو قـريب من ذا، وفى رواية «فـتربد وجـهـه»، وفى رواية «وقد تغرغرت عيناه، وإنتفخت أوداجه» .

■ روى القـاضى عـياض بسنده قـال: ناظر أبو جـعـفـر أمـيـر المؤمنين مالكاً فى مـسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـال له: يا أمير المؤمين، لاترفع صوتك فى هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوماً، فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وذم قوماً، فـقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾، وإن حرمـته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر [١]

■ وكان الإمـام مالك من أشـد السلف تعظيمـاً لحرمـة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لايركـب بالمدينة دابة، وكـان يقول: استـحى من اللّه أن أطأ تربة فيها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بحافر دابة .

١- المرجع السابق ٢، ٧٠ - ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ مـفاهيم يجب أن تصحح للـمحدث محـمد بن علوى المالكى الحسنى ٢٧٦ .

ونظر السلف إلى تبجيله هذا بعين الإحترام، ونقلوه إلينا، ولم يخطر ببـال أحـد منهم، أن يقـول له: إن سلوكـك هذا لم يقم به أحـد ممن سبقك من السلف الصالح من التابعين والصحابة .

وأكبر من هذا أن الإمام مالك كان لايقضى حاجته البشرية فى المدينة مع أنـه من سكانهـا الدائمين، وكـان يفـتـى فـيـمن قـال تربة المدينة رديئة، يضرب ثـلاثين درة -آلة تعزيز- وأمر بحبسـه وقال: ما أحوجه إلى ضـرب عنقه، تربة دفن فيهـا رسول اللّهﷺ يزعم أنها غير طيبة .

وكان إذا أتاه الناس خـرجت إليهم الجاربة، فتقـول لهم: يقول لكم الشـيخ: تريدون الحديث أو المسـائل، فإن قـالوا المسائـل، خرج إليهم، وإن قـالوا الحديث، دخل مـغتـسله، فأغتـسل وتطيب، ولبس ثيـاباً جـديدة، ولبس سـاجـه،[1] وتـعـمم، ووضع على رأسـه رداءه، وتلقى له منصـة، فيخرج، فـيجلس عليـها، وعليه الخشوع، ولايزال يبخر بالعود، حتى يفرغ من حديث رسول اللّه ﷺ .

قـال أبن أبى أويس: فـقـيل لمـالك فى ذلك، فـقـال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

١- أى الطيلسان .

■ قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك مرة، وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشر مرة، وهو يتغير لونه ويصفر، ولايقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس، وتفرق عنه الناس قلت: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجباً، قال: نعم، لدغتنى عقرب ست عشر مرة، وأنا صابر فى جميع ذلك، وإنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

■ قال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبى ﷺ يتغير لونه، وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً فى ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت، لما أنكرتم علىَّ ما ترون.

وما ذكرته عن الإمام مالك فى التعظيم، ذكر مثله وما هو شبيه به عن غيره، من أئمة السلف، كعبد الرحمن بن مهدى، وابن نمير، ووكيع، ومحمد بن المنكدر، وجعفر الصادق، وعبد الرحمن ابن القاسم، وعامر بن عبدالله بن الزبير، وغيرهم كثير.(١)

ولو أراد الباحث أن يجمع الروايات التى تعبر عن تعظيم السلف لرسول الله ﷺ لجمع منه مجلدات كثيرة.

وإنما جعلت عنايتى فى أكثر ما أرويه عن الإمام مالك لـ :

١- انظر كتاب الشفاء للحافظ، عياض، وكتاب الجامع للحافظ البغدادى.

١ - أبين أن مذهب بلدنا، هو مذهب الإمـام مالك، فى تعظيم رسول الله ﷺ وتبجيله والمبالغة فى هذا التعظيم .

٢- أننا فى إقـتدائـنا إنما نقتـدى بأهل العلم والبـصـائر، الذين يرون ما لانرى، والذين يتقدمون علينا فى الإدراك العقلى والروحى .

●●●

تعظيم الطبيعة

لايقتصر الأدب مع رسول الله ﷺ على بنى البشر، بل يتعداهم حتى يشمل الطبيعة والكائنات الحية :

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت :كان لآل رسول الله ﷺ وحش فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد، وأقبل وأدبر، فإذا أحس رسول الله ﷺ ربض، فلم يتبرم،[١] مادام رسول الله ﷺ فى البيت كراهية أن يؤذيه[٢].

■ عن أنس بن مالك قال: كان أهل بيت من الأنصار، لهم جمل يسنون -يسقون- عليه، وأنه استصعب عليهم، فمنعوه ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نستنى عليه، وأنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا، فدخل الحائط، والجمل فى ناحيته، فمشى النبى ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يارسول الله قد صار مثل الكلب، نخاف عليك صولته، قال: ليس

١- أى سكن ولم يتحرك .

٢- رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٩،٧ .

عليَّ منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بناصيته أذل ما بناصيته أذل ماكانت قط، حتى أدخله فى العمل [١].

■ عن ابن عباس قال: جاء رجل من بنى عامر، إلى النبى ﷺ كان يداوى ويعالج، فقال له: يامحمد إنك تقول أشياء، فهل لك أن أداويك لله قال: فدعاه رسول الله ﷺ، ثم قال: هل لك أن أداويك؟ قال: أيه، وعنده نخل وشجر، قال: فدعا رسول الله ﷺ عذق نخلة منها، فأقبل إليه وهو يسجد، ويرفع، ويسجد، ويرفع، حتى إنتهى إليه، فقام بين يديه، ثم قال له رسول الله ﷺ: ارجع إلى مكانك، فرجع إلى مكانه، فقال: والله لا أكذبك بشئ تقول بعدها [٢].

حدود التعظيم

قال الإمام السبكى: وأعلم أن هاهنا أمرين لابد منهما :

١- رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخى أنس، وهو ثقة، المرجع السابق، والجزء والصفحة .

٢- رواه أبو يعلى ورجاله الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامى وهو ثقة المرجع السابق والجزء ١٣ .

■ أحدهما وجوب تعظيم النبى ﷺ ورفع رتبته عن سائر الخلق .

■ والثانى إفراد الربوبية، وإعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه .

فمن اعتقد فى أحد من الخلق مشاركة البارئ تعالى فى ذلك، فقد أشرك وجنى على جانب الربوبية فيما يجب لها، وعلى الرسول فيما أدى الأمة من حقها. ﴿لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم﴾ .

ومن قصر بالرسول ﷺ عن شئ من رتبته فقد جنى عليه، وعلى اللّه تعالى، بمخالفته فيما أوجب لرسوله .

ومن بالغ فى تعظيم النبى ﷺ بأنواع التعظيم، ولم يبلغ به ما يختص بالبارى تعالى، فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً، وذلك هو العدل الذى لا إفراط فيه ولاتفريط .

ومن ترك شيئاً من التعظيم المشروع لمنصب النبوة زاعماً بذلك الأدب مع الربوبية، فقد كذب على اللّه تعالى، وضيع ما أمر به فى حق رسله .(١)

●●●

١- شفاء السقام ٧٢ .

وصف النبى ﷺ بالسيادة

السيد، لفظ مشتق يعبر عن صفة من الصفات الفاضلة فى الشخص المتصف به، فهو لفظ مدح وثناء :

قال ابن عباس: السيد الحليم، وقال مجاهد: الكريم على الله، وقال عكرمة وابن زيد: الذى لايغلبه الغضب، وقال قتادة: سيد فى العلم والعبادة، وقال ابن المسيب: الفقيه العالم، وقال القاضى: هو المتقدم المرجوع إليه، وقال الزجاج: السيد الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير .[1]

وهذه الصفات جميعاً من صفات رسول الله ﷺ وقد وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الكثيرة، والآثار المختلفة فى الصحيحين،[2] وغيرهما، التى يؤخذ منها إتصاف الرسول ﷺ بوصف السيادة، وتعددت دلالة هذه النصوص، وإختلفت تعبيراتها بحيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١- دلالة التصريح والمنطوق:

■ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد

١- تفسير القرطبى ٤،٧٧، تفسير الرازى ٨،٣٨ .

٢- أى البخارى ومسلم .

الناس يوم القيامة﴾[١].

وهذا الحديث قد إتفقا عليه البخارى ومسلم، واجتمعت الأمة على تلقى ما إتفقا عليه بالقبول، والأمة فى إجماعها معصومة من الخطأ[٢].

عن أبى سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿أنا سيد ولد آدم ولافخر﴾[٣].

ففى هذين الحديثين، وصف رسول الله ﷺ نفسه بلفظ السيادة، وأخبر بأن سيادته للناس أجمعين، بالسؤدد المطلق، المفيد للعموم فى المقام الخطابى، فيفيد تفوقه على جميع ولد آدم، حتى أولى العزم من الرسل، وإحتياجهم إليه، كيف لا، وهو واسطة كل فيض - كما قال الحافظ الزرقاني[٤].

ولهذا فوصفه -كما قال الإمام العقبانى- بسيدنا بعد ورود هذا الخبر تعبير عن الإيمان بهذا النص، وتصديق له[٥].

١- اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٠٢

٢- ضوابط الرواية عند المحدثين للصديق بن نصر ٨٧ - ٨٨ .

٣- حديث صحيح سنن ابن ماجه - الألبانى- رقم ٣٤٧٧ .

٤- الزرقانى علي المواهب اللدنية ٥،٢٩٧ .

٥- معيار الونشريسى ١١،٨١ .

وما قـاله الإمام هو مـايؤخذ من سـيرة السلف وأئمـة الحديث حين تعاملوا مع امثال هذه النصوص :

١- عن المقبـرى قـال : كنا مع أبى هريرة ، فـجـاء الحـسن بن على رضي الله عنه فسلم ، فـرد عليه القـوم ، ومعنا أ بو هريرة لايعلم ، فـقيل له: هذا حسن بن على يسلم ، فلحـقه فقال : وعليك ياسيـدى فقيل له: تقـول ياسيـدى! -والعجب مع فـارق السن- فقـال : أشهـد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال إنه سيد.[١]

فـفـى هذا الأثر، نادى ابو هريرة الحـسن بن علـى رضي الله عنه بلفظ السيـادة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف الحسن به حين قال إنه سـيد، ومعنى هذا أنه يـصح لنا أن نَصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ السـيادة، لأنه وصف نفسه به .

قال الإمام الشاطبى : يترجح الاعتماد علي الصحابى فى البيان من وجهين :

■ احدهما معـرفتهم باللسان العربى ، فإنهم فصحـاء لم تتغير ألسنتهم، ولم تتـزلزل عن رتبتهـا العليا فصـاحتهم ، فَـهُم أعرف فى فهم الكتـاب والسنة من غيـرهم، فإذا جاء عنهم قـول أو عمل واقع موقع البيان، صح إعتماده من هذه الجهة .

١- رواه الطبرانى ورجاله ثقات مجمع الزوائد ٩ , ١٨١

■والثانى مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحى بالكتاب والسنة فهم أقعد فى فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون مالايدركه غيرهم بسب ذلك، والشاهد يري ما لايرى الغائب .[١]

ب- قيل للإمام مالك: هل كره أحد بالمدينة قول العبد المملوك لسيده ياسيدى؟ قال: لا.. وإحتج بقوله تعالى عن سيدنا يحيى -عليه السلام- ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ .[٢]

والإمام فى هذه الفتوى نهج منهج أبى هريرة رضي الله عنه ومعنى كلامه أن من وصف بالسيادة، يجوز لنا أن نناديه بياسيدى .

عن عطاء مولى السائب بن يزيد قال: كان وسط رأس السائب أسود، وبقيته أبيض فقلت له: ياسيدى، والله ما رأيت مثل رأسك هذا قط، هذا أسود، وهذا أبيض، قال: أفلا أخبرك يابنى، قلت: بلى، قال: كنا مع الصبيان نلعب، فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعرضت له، فسلمت عليه، فقال: وعليك، من أنت؟ قال: أنا السائب بن يزيد بن أخت الثمر بن قاسط،، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: بارك الله

١- الموافقات ٣،٣٣٨ .

٢- عمدة القارى على البخارى ٦،٢٣٨ .

فيك، قال: فلا والله لايبيض أبداً ولايزال هكذا أبداً.[١]

جـ- قال الحافظ البغدادي: إذا قال الطالب للمحدث في خطابه له ﴿ياسيدي﴾ كان ذلك جائزاً، واستدل بقول رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ: ﴿قوموا إلى سيدكم﴾.[٢]

فرأى أنها جائزة، وأنها من باب التكريم والتشريف، واستدل على صحتها وجوازها بوصف رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ بالسيادة، ومبنى الفتوى على أن من تحققت فيه معنى السيادة، يجوز في خطابنا له أن نستعمل لفظ السيادة.

٢-دلالة الأولى:

هناك نصوص كثيرة أطلقت فيها صفة السيادة على من دون رسول الله ﷺ في المرتبة والفضل، ويؤخذ منها جواز إطلاقها على رسول الله ﷺ من باب أولى:

■ قال الله تعالى عن سيدنا يحيى -عليه السلام- ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾[٣] فعدد من

١- رواه الطبراني في الكبير ورجاله الصحيح غير عطاء مولى السائب وهو ثقة مجمع الزوائد ٩،٤١٢ .

٢- الجامع فقرة رقم ٢٩١ .

٣- سورة آل عمران، الآية رقم ٣٩ .

صفـاته التصديق، والسيـادة، والحصور، والنبـوة، والصلاح، وعلمنا به، أنه يجوز لنـا حين نتحدث عن الشـخصيـات العظيمـة، أن نسرد ونجمع صفاتهم المتعددة .

■ قال اللّه تعالى: فى قصـة يوسف -عليه السلام- ﴿اذْكُـرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[١] قال البخارى: أى عند سيدك .[٢]

■ جـاء فى الصحـيحن عن عـائشة رضي الله عنها أن رسـول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: ﴿يافاطمـة، ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المـؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة﴾ .[٣]

■ جاء فى البخاري: ﴿فاطمة سيدة نساء أهل الجنة﴾ .[٤]

■ عن أبى بكر رضي الله عنه قـال: سـمـعت النبى صلى الله عليه وسلم علـى المنبـر، والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول: ﴿ابنى هذا سيد، ولعل اللّه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين﴾ .[٥]

■ عن أبى هـريرة رضي الله عنه أن رسـول الـلّه صلى الله عليه وسلم قـال: ﴿لايقل

١- سورة يوسف، الآية رقم ,٤٢

٢- البخارى - الفتح - ١٠٣،٦ .

٣- اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٥٩٣ .

٤- البخارى -الفتح- ١٠٦،٨ .

٥- المرجع السابق والجزء ٩٦ .

أحـــدكـم أطعم ربـك، وضىء ربك، اسـق ربك، وليـــقل سيدى، ومولاى﴾ [١].

■ عن أبى موسى ﷺ أن رسول اللّـه ﷺ قال: ﴿للمملوك الذى يحسن عـبادة ربه، ويؤدى إلى سيـده الذى له، عليـه من الحق، والنصيحة، والطاعة، أجران﴾ [٢].

■ عن عبد الله ﷺ أن رسول اللّهﷺ قال ﴿العبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه﴾ [٣].

■ جاء فى البخارى أن رسول اللهﷺ قال للأنصار: ﴿قوموا إلى سيدكم﴾ [٤] أى سعد بن معاذ .

■ وجـاء فـيــه أن رسـول اللّهﷺ قـال لبنى سـلمـه: ﴿من سيدكـم﴾؟ [٥] قالوا: الجد بن قيس، على أنا نبـخله، قاله: ﴿وأى داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح﴾ [٦] .

فرسول اللهﷺ استعـمل لفظ السيادة، وأقرهم على وصف

١- المرجع السابق والجزء ٦،١٠٥ .

٢- المرجع السابق والجزء ١٠٤ .

٣- المرجع السابق والجزء ١٠٦ .

٤- المرجع السابق والجزء ٦،١٠٣ .

٥- المرجع السابق .

٦- الأدب المفرد للبخارى رقم ٢٩٦، فتح البارى ٦،١٠٣ .

الناس بها، لأن كلمة ﴿الجد بن قيس﴾ فى الحديث خبراً لمبتدأ محذوف، أرشد إليه السؤال، تقديره، سيدنا الجد بن قيس، وتقرر شخص فى مكانه للسيادة، لايغير من الإقرار شيئاً، لأنه لو سألهم أى إنسان فى المستقبل، فقال لهم: من سيدكم؟ لقالوا له: سيدنا عمرو بن الجموح، يجيبونه بما أجابوا به رسول الله ﷺ وهو ماصرح به صلى الله عليه وسلم فى آخر الحديث .

■ عن عائشة رضي الله عنها قال عمر لأبى بكر: ﴿نبايعك أنت فأنت سيدنا، وخيرنا، واحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده، وبايعه، وبايعه الناس﴾[(١)] .

■ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا[(٢)] يعنى بلالا .

■ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: عن أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ﴿إنهما سيدا كهول أهل الجنة﴾[(٣)] .

١- البخارى - الفتح- ٨، ٣٠ .

٢- المرجع السابق والجزء ١٠٠ .

٣- رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه المقدام بن داود قال عنه ابن دقيق أنه وثق وبقية رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد ٩، ٥٦ .

يؤخذ

وهذه النصوص وأمثالها منها جواز إطلاق لفظ السيادة على رسول الله ﷺ من باب أولى، وهذا الجواز واضح مبين لايحتاج إلى إستنباط ويتمكن العام والخاص من إدراكه .

٣- دلالة مفهوم المخالفة:

عن بريده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿لاتقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل﴾(١)، فمنطوق هذا الحديث النهى عن وصف المنافق بالسيادة ومفهومه جوازه لغيره .

قال الإمام النووى: لابأس بإطلاق فلان سيد، وياسيدى، وشبه ذلك إذا كان المسود فاضلاً خيراً، إما بعلم، وإما بصلاح، وإما بغير ذلك، وإن كان فاسقاً أومتهماً فى دينه، أو نحو ذلك، كره له أن يقال سيدنا، وقد روينا عن الإمام أبى سليمان الخطابى من معالم السنن نحو ذلك(٢).

وقال ابن القيم: كان ﷺ يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون فى حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق

١- إسناده صحيح الأذكار للنووى ٣١٣ .

٢- المرجع السابق ٣١٤ - ٣١٥ .

من ليس من أهله، فمن الأولى منعه أن يقول للمنافق ياسيدنا، وقال: ﴿فإن لـم يكن سيـدا فقد أسـخطتم ربكم عـز وجل﴾[١]، ومضـمون الحـديث أن الجـواز والمنـع فى إطلاق لفظ السـيـادة مـرتبـط بأهليـة الشخص الموصوف به وعدم أهليته .

●●●

١- زاد المعاد ٢،٩ .

النصوص المتشابهة

جَلّ النصوص الدينية ومعظمها، تجوز استخدام لفظ السيادة فى المتميزين من البشر، وتأذن فى وصفهم به، وهناك نصوص قليلة يوهم ظاهرها المنع من إطلاق لفظ السيادة على من سوى اللّه، ومن هذه الأحاديث :

حديث مطرف :

روى مطرف عن أبيه قال: إنطلقت فى وفد بنى عامر، إلى رسول اللّه ﷺ ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد اللّه تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولايستجيرنكم الشيطان .

وهذا الحديث إذا سلمنا بأنه يمنع إطلاق لفظ السيادة على غير اللّه سبحانه، ويجعلها مقصورة عليه يكون:

١- معارضاً للآيات القرآنية كالآية فى سورة آل عمران، التى أطلقت هذه اللفظ على سيدنا يحيى -عليه السلام- وذكرته فى أوصافه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1].

١- سورة آل عمران، الآية رقم/ ٣٩ .

٢- معارضاً للأحاديث الشريفة الواردة فى الصحيحين، وفى غيرهما، التى هى أعلى من حديث مطرف، ومن غيره فى درجة الصحة، وأكثر عدداً، والتى تضافرت على جواز إطلاق لفظ السيادة على من سوى اللّه ﴿أنا سيد ولد ادم﴾، ﴿وليقل سيدى﴾، ﴿قوموا إلى سيدكم﴾، ﴿فاطمة سيدة نساء الجنة﴾، إلى آخر الأحاديث الشريفة التى سبق ذكرها، وذكر غيرها، وذكر المراجع الموجودة فيها، والتى يرجحها عمل أهل المدينة .

قيل للإمام مالك: هلى كره أحد بالمدينة قول العبد المملوك لسيده ياسيدى؟ قال: لا ..[1] وعمل أهل المدينة رواية اشتهرت واستفاضت، فهى رواية ألف عن ألف عن النبى ﷺ .

٣- معارضاً للإجماع قال: ابن تيمية: نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة شاهد بأن محمداً ﷺ سيد ولد آدم .[2]

والإجماع حجة قطعية، تضافرت الأدلة على الأخذ به، وهو من الأصول المقطوع بها، والمسألة المجمع عليها، لاتصلح أن تكون محلاً للنزاع .

١- عمدة القارى على البخارى ٦،٢٣٨ .

٢- مجموع الفتاوى ١٤،٤٣٢ .

قال الشيخ محمد الخضرى فى كتابه أصول الفقه: تضافرت الرواية عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة مع إتفاق المعنى، فى عصمة هذه الأمة من الخطأ، واشتهر ذلك على لسان الثقات من أصحابه: كعمر، وابن مسعود، وأبى سعيد الخدرى، وأنس بن مالك، وابن عمر، وأبى هريرة، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من نحو قولهم :

- ﴿لاتجتمع أمتى على ضلالة﴾ .
- ﴿من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة﴾ .
- ﴿إن الشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد﴾ .
- ﴿يد الله مع الجماعة﴾ .
- ﴿من خرج عن الجماعة، أو فارق الجماعة، قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه﴾ .
- ﴿من فارق الجماعة، ومات فميتته جاهلية﴾ .

قال: وهذه الأخبار، لم تزل ظاهرة فى الصحابة والتابعين ومن بعدهم، لم يدفعها أحد من أهل النقل، من سلف الأمة وخلفها، بل هى مقبولة من موافقى الأمة ومخالفيها، ولم تزل الأمة، تحتج بها فى أصول الدين وفروعه .

والمحتجون بهذه الأخبار، أثبتوا أصلاً مقطوعاً به، وهو الإجماع، الذى يحكم به على كتاب اللّه تعالى، وعلى السنة المتواترة .

والعادة تقتضى أن مثل هذا الإتفاق لم يكن عن مجرد ظنون، بل لابد أن يكون عندهم دليل مقطوع به .[1]

●●●

١- أصول الفقه للخضرى ٢٨٦ - ٢٨٧ .

الموقف الأصولى

إذا اجتمع نصان متعارضان، فإن أمكن التوفيق بينهما، بأن يحمل كل واحد منهما على وجه وتفسير خاص، تعين التأويل والتفسير، لأن إعمال الدليلين أولى من إهمال أحدهما بالكلية، لكون الأصل فى الدليل هو الإعمال لا الإهمال .

وإن لم يمكن فيتعين قبول أحدهما وترجيحه، ورفض الآخر، ورده على أن يقدم فى الترجيح الأخذ بالنص القطعى والأكثر صحة، والذى تضافرت معه النصوص الكثيرة المؤيده له .[1]

١- موقف التأويل:

يلتجئ الباحث للتأويل حينما يكون هناك موجب له، بأن يكون ظاهر النص مخالفاً لقاعدة مقررة معلومة من الدين بالضرورة أو مخالفاً لنص أقوى منه سنداً، كأن يخالف الحديث قراناً أو سنة أقولى منه،[2] كما هو الحال فى المسألة المدروسة المتعلقة بلفظ السيادة، قال ابن حجر -شارح البخارى- ما ذكره البخارى من الأحاديث

١- نهاية السول للأسنوى ١٥٨،٣ - ١٦٩ .

٢- أصول الفقه لأبى زهرة ١٣٦ .

المتعلقة بلفظ السيادة، يحتاج إلى تأويل الحديث الوارد فى النهى عن إطلاق «السيد» على المخلوق .[١]

والتأويل هنا يحمل كل نص من النصوص على وجه من الوجوه ومحمل من المحامل، وتفسير من التفسيرات، غير الذى يحمل عليه، ويفسر به النص الآخر .

والدارس لحديث مطرف السابق، يجب عليه أن يعرف أن للرسول ﷺ صفات كثيرة صالحة، لأن تكون مصادر أقوال وأفعال منه، وأنه بحاجة إلى تعيين الصفة التى عنها صدر منه قول أو فعل، فرسول الله ﷺ هو الإمام الأعظم، والقاضى الأحكم، والمفتى الأعلم، هو إمام الأئمة، وقاضى القضاة، وعالم العلماء، فما من منصب دينى إلا وهو متصف به فى أعلى رتبه .

وروسل الله ﷺ فى تصرفاته، قد يتكلم ويتصرف بإعتبار التبليغ، وقد يتكلم ويتصرف بإعتبار القضاء، وقد يتحدث بإعتباره حاكماً:

■ فبعث الجيوش، واستقبال الوفود، وصرف أموال بيت المال فى جهاتها، وجمعها من محالها، متى فعل رسول الله ﷺ شيئاً

١- فتح البارى ٦،٤٠١ .

منها، علمنا أنه تصرف فيه بصفة الحاكمية والإمامة .

■ والفصل بين الأثنين فى دعاوى الأموال، وأحكام البينات والخصومات ونحوها، رذا وجدناه فى الحديث، نعلم أنه ﷺ يتصرف بصفة القضاء .

■ وتصرفاته ﷺ فى العبادات بقوله أو فعله، أو إجابة السائلين، يعتبر من باب الفتوى والتبليغ .[1]

والحديث النبوى الشريف -حديث مطرف السابق- مقامه الذى يتحدث فيه مقام الحاكمية أمام الوفود المعلنة للولاء والطاعة، وهذا المقام ينهى فيه عن المبالغة فى المدح والثناء، سداً لذريعة النفاق والتملق، التى قد يبالغ فيها المحكوم، ويستهويه الشيطان، فيخرج عن الحد المعقول، بدافع الطمع، فهو تشريع لمن بعده من الحكام والمحكومين .

أما مقام غير الحاكمية -مقام الرسالة والقضاء- فلايمنع فيه المدح، والسند فى هذا هو ما تفيده النصوص الآتية :

١- الفروق للقرافى، الفرق السادس والثلاثون، مقاصد الشريعة للشيخ الطاهر بن عاشور ٢٦ - ٢٧ .

أ- فى مقام القضاء:

روى عبد الله بن أحمد بن حنبل بسند رجاله ثقات، عن معن بن ثعلبه المازنى، قال: حدثنى الأعشى المازنى، قال: أتيت النبى ﷺ فأنشدته:

يامالك الناس وديان العرب ∴ إنى لقيت ذربة[1] من الذرب

غدوت أبغيها الطعام فى رجب ∴ فخلفتنى بنزاع وهرب

أخلفت العهد ولطت بالذنب ∴ وهن شر غالب لمن غلب

قال: فجعل يقول للنبى ﷺ عند ذلك: ﴿وهشر غالب لمن غلب﴾[2]

وهذا الحديث يحكى قصة إمرأة الأعشى -معاذة- التى هربت من بيت زوجها، حينما خرج يمير أهله -يطلب لهم الطعام- فعاذت برجل منهم، يقال لهم مطرف، فلما قدم الأعشى لم يجدها فى بيته، وأخبر أنها عاذت بمطرف، فأتاه، فقال: يابن العم، أعندك امرأتى معاذه؟ فأنكر، وبعد ظهور الحقيقة امتنع من تسليمها، فالتجأ الأعشى إلى رسول اللّه ﷺ يقضى بينه وبين مطرف، وبينه وبين

---

١ - أى إمرأة فاسدة سليطة اللسان، ويقصد بها زوجته .

٢ - أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد، وقال رواه عبد الله بن أحمد، ورجاله ثقات، الفتح الربانى على مسند الإمام أحمد ١٩، ٣٠٦ .

زوجته وبدأ قصيدته بالمدح، فقال:

يامالك الناس، وديان العرب ... ولم يقل له رسول اللهﷺ إن المالك هو الله، بل أقره ﷺ على هذا المدح ولم يعقب عليه .

وكلمه ﴿مالك﴾ و ﴿ديان﴾ فى التعبير أقوى من كلمة سيد .

ب- المدح فى مقام الرسالة:

ورد المدح لرسول اللهﷺ بإعتباره رسولاً على لسان الله، وفى تعبيرات الصحابة المكرمين .

■ قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾[1]

ومضمون هذه الأوصاف السيادة فى العبادة، والمعية فى الآية تقتضى أنه المتقدم المرجوع إليه، وهو معنى السيادة كما فسره قتادة والقاضى.[2]

■ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا

١- سورة الفتح، الآية رقم ٢٩ .

٢- انظر معنى السيادة فى أول الحديث .

إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾، ومضمون هذه الأوصاف أنه كريم على الله، وهو مافسر به مجاهد لفظ السيادة، والعبرة فى المعانى، ولامشاحة فى الألفاظ .

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تثنى على رسول الله ﷺ والتى سيأتى التعرض لها فى كتاب «المدح النبوى» إن شاء الله تعالى .

وجاء فى الحديث الشريف، أن كعب بن زهير، أنشد رسول الله ﷺ قصيدته البردة، وقال فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به .·. مهند من سيوف الله مسلول

أنبئت أن رسول الله أوعدنى .·. والعفو عند رسول الله مأمول

والبيت الأخير يعبر عنه لفظ السيد على حسب تفسير عكرمة وابن زيد بأن السيد هو الذى لايغلبه الغضب .

ولما بلغ كعب هذين البيتين، أشار رسول الله ﷺ إلى من معه استمعوا -أى إلى المدح- فأقره رسول الله ﷺ على المدح، وأمر بالإستماع إليه، وأجازه علي هذه القصيدة، وأعطاه بردته الشريفة.[1]

١- الشفاء للقاضى عياض ٢،٤١٨م مجمع الزوائد مع إختلاف ٩،٣٦٩ وانظر القصة فى المستدرك للحاكم .

وقالت أم أيمن رضي الله عنها :

حين قالوا الرسول أمسى فقيداً .:. ميتاً كان ذلك كل البلاء
فلقد كان ما علمت وصولاً .:. ولقد جاء رحمة بالضياء
ولقد كان بعد ذلك نوراً .:. وسراجاً يضئ فى الظلماء
طيب العود والضريبة[١] والمعد .:. ن والخيم[٢] خاتم الأنبياء[٣]

والخلاصة أن نهى الوفد عن المبالغة فى حديث مطرف، إنما كان خاصاً بمدح حاكم لمحكوم، وما عداه فيجوز فيه المدح والثناء .

تأويل صاحب القاموس:

ذكر الحافظ السخاوى أن صاحب القاموس، أول حديث مطرف بإحتمالات متعددة :

■ فقد يكون علي سبيل التواضع منه ﷺ ﴿كما يقول كبير الأسرة عندنا عندما يسأل أنت أكبر أفراد الأسرة؟ فيقول الكبير الله﴾ .

■ وقد يكون لمبالغتهم فى المدح، حيث قالوا أنت سيدنا، وأنت

١- السجية والطبيعة .

٢- الأصل .

٣- الطبقات الكبرى ٢،٣٣١ - ٣٣٣ .

والدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء، كما جاء فى بعض روايات الحديث، وأنت، وأنت، فرد عليهم، وقال: قولوا بقولكم، ولاتستهويكم الشياطين .

ثم قال: وقد صح قوله ﷺ ﴿أنا سيد ولد آدم﴾، وقوله للحسن ﴿إن أبنى هذا سيد﴾، وقوله لسعد: ﴿قوموا إلى سيدكم﴾، وورد قول ابن مسعود: ﴿اللهم صل على سيد المرسلين﴾، وفى كل هذا دلالة واضحة، وبراهين لائحة، على جواز ذلك -أى قول سيدنا- والمانع من الإتيان والتلفظ بها، يحتاج إلى إقامة دليل سوى ماتقدم، لأنه لايصلح دليلاً مع حكاية الإحتمالات،[١] وشهادة السياق .

شهادة السياق:

يجب على الباحث عند تحليل نص من النصوص، الإلتفات إلى أول الكلام وآخره، وما إقتضاه الحال، ولاينظر فى أوله دون اخره، ولافى آخر دونه أوله، حتى يتبين له المراد، يقول ابن تيمية: التأويل المقبول، هو مادل على مراد المتكلم .[٢]

١- القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع للحفاظ السخاوى ١٠٧ .

٢- درء التعارض ١،١ : ٢

ومعنى السياق هنا أن تنظر إلى ما قبل تلفظ الرسول ﷺ بالحكم وإلى ما بعده :

أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الاسماء والصفات، عن ابن عباس، فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1] قال كرسيه علمه، ألاترى إلى قوله ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[2] فحدد معنى الكرسى، واستعان فى تحديده بالجملة التى بعده .

وسئل على بن المدينى عن معنى المعية فى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[3] فقال: أقرأ ما قبله ﴿ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض﴾ فحدد معنى المعية بأنه معية علم، استعانة بالجملة التى قبله .

تطبيق هذه القاعدة على الحديث الشريف:

نص حديث: عن مطرف عن أبيه قال: انطلقت فى وفد بنى عامر

١- سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٥ .

٢- سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٥ .

٣- سورة المجادلة، الآية رقم ٧ .

إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: ﴿السيد الله تبارك وتعالى﴾ .

وعن أنس أن رجلاً قال للنبي ﷺ يامحمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ : ﴿يأيها الناس، علكيم بتقواكم، لايستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل﴾ .

ظاهر السياق فى الحديث النبوى الشريف الثانى يدل على عدم صلاحية الإستدلال به علي منع لفظ السيادة مطلقاً، لأنه جاء فى تعليلات المنع، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل﴾، التى تدل على أن المنهى عنه ليس لفظ السيادة فى حد ذاته، لأنه قد أثبته رسول الله ﷺ لنفسه فى حديث آخر أصح منه ﴿أنا سيد الناس﴾،[1] أى أن السيادة منزلته، ولايعقل أن يكون معنى الإثبات هو معنى النفى، وإلا لأدى إلى وجود التناقض، ﴿أنا سيد، أنا لست بالسيد، السيد هو الله﴾ فوجب أن تكون السيادة المثبتة غير السيادة المنفية، وأقرب معنى فى تفسير السيادة المنفية، أنهم

١- اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٢٠ .

عنوا بهـا معنى لايليـق بالبشـر، بل يليق بالله، ذلك أن السـؤود عند العرب فى الجـاهلية،[١] يعتـمد كفاية مـهمات القـبيلة، ويعتـمد على خلال مرجعهـا إلى إرضاء الناس على أشرف الوجوه،[٢] وهذا المعنى لايوجـد فى غيـر الله سـبـحانه وتعـالى، بخـلاف غيـره من المعـانى كالكرم، والعلم والحلم، والتقوى، والتقدم عن بنى الجنس، التى تدل عليها لفظ السـيادة، والتى توجد فى البشـر، والتي وصف بها رسول الله ﷺ أصحابه، كـما جاء فى الأحاديث الشريفـة السابقة الواردة فى فقرة المفهوم .

والقاعـدة ﴿أن الاسم الواحد، ينفى ويثـبت، بحسب الأحكام المتعلقة به، فلا يجب إذا أثبت، أو نفى فى حكم، أن يكون كذلك فى سائر الأحكام، لأن المعنى مفهوم﴾[٣]

قـال الشيـخ زروق: ما مـدح أو ذم لذاته، قـد ينعكس حكمـه لموجب يقتضى نقيضه .[٤]

١- وفد بنى عامر حديث عهد بالإسلام، لم تتطهر نفوسهم بعد من أدران الجاهلية .

٢- التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور ٣،٢٤٠ .

٣- مجموع الفتاوى ٧،٤١٨ .

٤- قواعد التصوف القاعدة ١٠٣ .

ويجب على الباحث -كما قال الإمام الشاطبى- أن لايتبع الظواهر من غير تدبر ولانظر، وأن يتجنب القطع بالحكم ببادئ الرأى والنظر الأول، لأن هذا هو الذى حذر منه رسول الله ﷺ حين قال عن الخوارج المارقين: ﴿يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم﴾.[١]

٢- موقف الترجيح:

وإذا سلمنا بالتعارض، وسلمنا -جدلاً- بعدم إمكانية التأويل، فيتعين الأخذ بالنصوص التى تجوز إطلاق لفظ السيد على غير الله لـ:

أ- أن بعضها قطعى الثبوت، وهو الآيات القرآنية التى تجوز إطلاق لفظ السيد على غير الله، وما يقابلها ويعارضها أحاديث ظنية محتملة، والقاعدة فى التعارض: أنه إذا كان أحد الدليلين آية، والآخر خبر آحاد اعتبر خبر الآحاد ضعيف الإسناد.[٢]

ب- أنها أصح، فهى واردة فى الصحيحين، وفى مواقف متعددة، لشخصيات مختلفة، فى أزمنة متسعة، آخرها قوله للسيدة

١- انظر الموافقات ٤،١٧٩ .

٢- أصول الفقه لأبى زهرة ١٨٥ .

فاطمة الزهراء فى آخر حياته ﷺ .

بخلاف الأحاديث التى تعارضها، فهى أدنى مرتبة، والقاعدة الأصولية يقدم الأصح، ويتعين الأخذ به فى الترجيح، لاسيما إذا دعمه عمل أهل المدينة .

جـ- أنها مدعمة بالإجماع الذى يعبر عن نسخ ما يقابله، والإجماع حجة قطعية، تضافرت الأدلة على الأخذ به، والمسألة المجمع عليها، لاتصلح أن تكون محلاً للخلاف .

تقييم علماء الأصول للمخالف

موقف المستدل بالأحاديث المعارضة للإجماع، أمام علماء الأصول على إختلا ف مشاربهم -من يرى تقديم الإجماع على النص، ومن يرى العكس- على ثلاثة أنحاء :

١-قسم المخطئين :

يرى هذا الفريق أن من يستدل بالحديث المعارض للإجماع، قد أخطأ فى استدلاله بتقديمه النص المحتمل للنسخ، على الإجماع الذى لايحتمله، والذى يعبر على النسخ، والإلغاء للنص، [١] وأنه

١- فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ٢،١٩١ .

يجب عليه أن يتنبه إلى ما هو معلوم فى الشريعة، أن كثيراً من النصوص ينسخبعضها بعضاً،وإنه يتعين على المسلم الأخذ بالناسخ وترك المنسوخ، وإجماع الأمة على أمر علامة على نسخ ما يقابله .

ولهذا فالواجب على الباحث فى المسألة التى يدرسها الإلتفات إلى الإجماع الموجود فيها .

قال الإمام الغزالى: يجب عليه أن ينظر أول شىء فى الإجماع، فإن وجد فى المسألة إجماعاً ترك النظر فى الكتاب والسنة، فإنهما يقبلان النسخ، والإجماع لايقبله، فالإجماع على خلاف ما فى الكتاب والسنة دليل قاطع على النسخ .[١]

٢- قسم المضعفين:

يرى هذا الفريق أن المستدل بأحاديث المنع معارض للأحاديث المجوزة، وللإجماع والقاعدة عندهم: أنه إذا اجتمع مع الإجماع نص آخر، فتعتبر المسألة مدللاً عليها بدليلين،[٢] ودليل واحد أمام دليلين ضعيف، لاسيما إن كان الدليل المصاحب للإجماع قطعى الثبوت، آكد الصحة .

منكر الإجماع عندهم:

قال ابن تيمية: التحقيق أن الإجماع المعلوم يكفر مخالفة، كما

١- المستصفى ٢،٣٩٢ .

٣- المرجع السابق والجزء ٢٧٠ .

٢- مجموع الفتاوى ١٩ - ٢٧

يكفر مخالف النص بتركه، لكن هذا لايكون إلا فيما علم ثبوت النص به، كهذه المسألة .

٣- قسم المصنفين:

يرى هذا الفريق وجوب التمسك بالأدلة المتضافرة، المتعددة، الصحيحة، القطعية، التي تجوز إطلاق لفظ السيد على غير الله، لأن القاعدة المقررة، أن الشريعة إذا كان فيها أصل مطرد فى أكثرها، مقرر واضح فى معظمها، ثم جاء بعض المواضع فيها، مما يقتضى ظاهره مخالفة ما أطرد، فذلك معدود فى المتشابهات التى يتقى اتباعها، لأن اتباعها مفض إلى ظهور معارضة بينها وبين الأصول المقررة والقواعد المطردة .

والباحث عندهم إذا اعتمد على الأصول، وأرجأ أمر النوادر، وكلها إلى عالمها، فلاضرر عليه، ولاتعارض فى حقه، دل على ذلك قوله تعلى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [(١)] ، فجعل المحكم وهو الواضح المعنى، الذى لاإشكال فيه، ولا إشتباه، هو الأم والأصل المرجوع إليه، ثم قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يريد ليست بأم، ولامعظم ولاأصل، فهى إذاً قلائل، ثم أخبر أن إتباع

١- سورة آل عمران، الآية رقم ٧

المتشـابه منها، شأن أهل الزيغ والضـلال عن الحق، والميل عن الجادة، وأما الراسـخون فى العلم فليسـوا كذلك، وما ذلك إلا بإتبـاعهم أم الكتاب، وتركـهم الإتباع للمتشابـه،[١] قال تعالى: ﴿فَـأَمَّـا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.[٢]

●●●

١- الموافقات ٤،١٧٦ - ١٧٧ .

٢- سورة آل عمران، الآية رقم ٧

الحكم بالغلو

لايجوز الحكم بالمغالاة فى الدين، وتجاوز الحد على ناعت رسول الله ﷺ بالسيادة، بحجة مخالفته لسيرة السلف الصالح، الذين رووا أحاديث الصلاة على رسول الله ﷺ مجردة من السيادة لـ:

١- أن إقتصار الصحابة والرواة من بعدهم، على التلفظ باسم رسول الله ﷺ مجرداً فى روايات الصلوات المنقولة عنه، لايعنى المنع من وصف رسول الله ﷺ بالسيادة، لأنهم قصدوا بعدم إتيانهم بها، أداء ماسمعوا منه، كما أداه، فقولهم من باب الحكاية، وباب الحكاية يجب فيه الإقتصار على الوارد، لئلا ينسب إلى النبى ﷺ ما لم يقله[١] بدليل:

أ- أن الروايات المنقولة عن الصحابة وغيرهم التى فيها لفظ السيادة نقلها علماء الحديث كما هى،[٢] مقرونة بلفظ السيادة، على حسب ماتقتضيه الأمانة العلمية .

ب- أنهم استحسنوا استخدامها، استعملوها فى تعبيراتهم فى

١- المعيار ٣،١٠٣ .

٢- سيأتى ذكرها فى الفقرة الأخيرة .

غير باب الحكاية :

■ قال الحافظ ابن حجر -شارح البخارى- في القصائد المسماه بالسبع النيرات :

ياسيد الرسل الذى منهاجه　　　حاوٍ كمال الفضل والتهذيب

وقـــال:

ياسيدى يارسول اللّه قد شرفت　　قصائدى بمديح فيك قد وصفا [١]

■ وقـال الحـافظ العـينى فى شـرحه على الـبخـارى: ذكـر أبو الحسن فى مـدخله الكبيـر عن على بن أبى طالب -كـرم اللّه وجه- رؤية سـيدنا رسـول اللّه ﷺ تدل على الخـصب والأمطار، وكثـرة الرحمـة، ونصر المجاهدين، وظهـور الدين، وظفر الغـزاة والمقاتلين، ودمار الكفار.[٢]

وسواء كان لفظ السيـادة من العينى أو من غيره، ممن نقل عنه، فهذا يدل على أن رجال الحديث يسلمون بلفظ السيادة، ويطلقونه.

■ قال الإمـام الحافظ ابن الـصلاح: روى أن سـيـدنا رســول اللّه ﷺ قال: ﴿إنى لأسمع بكاء الصبى فأخفف لمكان أمه﴾ .

١- المقالات السنية للمحدث الهروى ١٦٧ .

٢- عمدة القارى على البخاري ١١،٢٩٥ .　　٣- فتاوى بن الصلاح فى فتوى رقم ٨٣

وقال فى مقدمته -فى مصطلح الحديث- حين التحدث عن سن رسول الله ﷺ : الصحيح فى سن سيدنا، سيد البشر، رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ، ثلاث وستون سنة .[١]

وقال فى بيان خصائصه: ولنبينا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، أوائل فى الدنيا والآخرة، ليست لغيره، فمن ذلك أن رؤية الله لم تحصل لأحد من البشر فى الدنيا، إلا لسيدنا رسول الله ﷺ .

والمعروف عند علماء الحديث، أن لفظ الشيخ إذا أطلق فالمراد به ابن الصلاح، قال الحافظ العراقى صاحب الألفية :

وكلما أطلقت لفظ الشيخ ما ∴ أريد إلا ابن الصلاح مبهماً
علامة الدنيا تقى الدين ∴ ابن الصلاح الصادق الأمين[٢]

■ قال الحافظ السيوطى: لم يتلفظ بالسيادة ﷺ كراهية للفخر، ولذا قال: ﴿أنا سيد ولد آدم ولافخر﴾، وأما نحن فيجب علينا تعظيمه وتوقيره، ولهذا نهى الله سبحانة وتعالى أن ينادى باسمه كما ينادى بعضنا بعضاً .[٣]

١- مقدمة ابن الصلاح بتحقيق بنت الشاطئ ٢٧٨ .
٢- المرجع السابق ٦٥٢ .
٣- مقدمة فتاوى ابن الصلاح ١ ,١١ م .
٤- معيار الوزانى ٣ ,١٠٣ .

قال الحافظ العراقى فى ألفيته فى الحديث :

وأفضل الصلاة والسلام على النبى سيد الأنام

وقال بعدها: كملت هذه الأرجوزة بطيبة مدينة رسول اللّه ﷺ[١].

■ قال الحافظ الأبى فى شرحه على مسلم -إكمال الإكمال- ما يستعمل من لفظ السيد حسن، والمستند فيه قوله ﷺ : ﴿أنا سيد ولد آدم﴾[٢].

■ قال الحافظ السخاوى: سيأتى فى ا لباب الأخير كيفيات آخر، من الصلاة على سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين .

وقال: إن الفكهانى ذكر، أن المنقول عن زين العابدين على بن الحسين: اللهم صل على سيدنا محمد الذى أشرقت بنوره الظلم، اللّهم صل على سيدنا محمد المبعوث رحمة لكل الأمم، اللّهم صل على سيدنا محمد المختار للسيادة والرسالة قبل خلق اللوح والقلم، اللّهم صل على سيدنا محمد الموصوف بأفضل الأخلاق والشيم، اللّهم صل على سيدنا محمد المخصوص بجوامع الكلم، وخواص الحكم، اللّهم صل على سيدنا محمد الذى كان لاتنتهك فى مجالسه

١- شرح ألفية العراقى ٢, ٢٨٠ .

٢- معيار الونشريسى ١١, ٨ .

الحرم، ولا يغضى عمن ظلم، اللهم صل على سيدنا محمد الذى كان إذا مشى تظلله الغمامة حيث مايهم، اللّهم صل على سيدنا محمد الذى أنشق له القمر، وكلمه الحجر، وأقر برسالته وصمم، اللّهم صل على سيدنا محمد الذى أثنى عليه رب العزة نصاً فى سالف القدم، اللّهم صل على سيدنا محمد الذى صلى عليه ربنا فى محكم آياته، وأمر أن يصلى عليه ويسلم ، صلى اللّه عليه، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه ما أنهلت الديم، وما جرت على المدنبين أذيال الكرم، وسلم تسليماً، وشرف وكرم .[١]

وأورد الحافظ فى كتابه (القول البديع)، صيغاً أخرى كثيرة، مقرونة بلفظ السيادة .

● قال الإمام ابن القيم إن لفظ السيد من اسماء رسول اللّه ﷺ [٢] وبمثل قوله قال الحفاظ السخاوى، وعدّ لها صيغاً ثلاثة: سيد ولد آدم ، وسيد المرسلين، وسيد الناس .[٣]

قال ابن القيم: لفظ سيد الكل، وسيد الناس ليس ذلك إلا لرسول اللّه ﷺ خاصة، كما قال: ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ .[٤]

١- انظر القول البديع ٥٩-٩٠ وانظر مقدمة الحفاظ فى أول كتابه .
٢- زاد المعاد ٢ , ٩ .
٣- القول البديع ٨٢
٤- زاد المعاد ٢ , ٦ .

وإختار زيادة لفظ السيادة لجمعها بين الأدب والإمتثال، حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر .[١]

قال الحفاظ الذهبي في كتابه المقتنى في سرد الكنى عند أول ترجمة: نبينا سيد البشر، مخمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ[٢]

وستأتي نقولات أخرى من الأقوال الأئمة، استحسنوا فيها لفظ السيادة، وحكموا على المعارض لها بما هو له أهل ﴿ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ .

٢- إن منهج السلف الصالح، نعت رسول الله ﷺ ونداؤه بما هو أبلغ من وصف السيادة، وهو وصف النبوة والرسالة، لأن معنى ندائه بالرسالة والنبوة نداؤه بما لايشاركه فيه غيره، فكأنهم يقولون، يأيها الموحى إليه، المتميز عنا بما ليس فينا، بخلاف ندائه بالسيادة، فمضمونها في الغالب معاني يشاركه فهيا غيره، لأن من معانيها العلم، والحلم، والكرم، والتقدم .

وإذا جاز وصفه، ومدحه، ونداؤه، بما فيه مبالغة وإنفراد، فلأن يجوز وصفه بالمدح المعتدل والمشترك من باب أولى .

١- معيار الوزاني ٣, ١٠١ .

٢- المقتنى ١, ٤٨ .

ولهذا انطلقت قريحة الصحابة فى رثائهم لرسول الله ﷺ تتعدد أوصافه التي ماكانوا ينادونه بها من قبل، كوصفه بالمهدى، والمواصل، والسراج، وطيب العود، وسعيد الجدّ، وخير من ركب المطايا...[1] ولم يعترض أحد منهم على وصفه بها، مادام القائل منهم يقول ما هو فيه .

وواصف رسول الله ﷺ بالسيادة قائل ما هو فيه ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ فهو سائر على منهج الصحابة، ملتزم بمنهجهم، مقتف لآثارهم، والإلتزام بقواعد المذهب إلتزام بالمذهب وإنتساب إليه.

٣- لأن السلف الصالح كان يصدر منهم، ما هو أقوى وأعمق فى المبالغة من مجرد التلفظ بلفظ السيادة، وهو تلقيهم لنخامة رسول الله ﷺ ودلكهم بها وجوههم وأجسامهم، وشربهم لدم رسول الله ﷺ وبوله،[2] فلئن جاز فعل الأقوى والأعمق، فجواز ما هو أقل من ذلك من باب أولى، اللّهم إلا أن نكون من الذين يجوزون قتل الحسين، ويرون من البذاءة قتل البعوضة والذبابة .

٤- أن السلف الصالح هو الذى أسس القاعدة التى تقول:

١- انظر رثاءه صلى ﷺ فى سيرة اين هشام وطبقات ابن سعد .

٢- كما تقدم إثباته .

﴿إن من وصف بالسيادة يجوز نداؤه بها﴾ .

عن المقبرى قال: كنا مع أبى هريرة فجاء الحسن بن على ﵁ فسلم، فرد عليه القوم، ومعنا أبو هريرة لايعلم، فقيل له: هذا حسن بن على، يسلم فلحقه، فقال: وعليك ياسيدى، فقيل له: تقول ياسيدى! ﴿والعجب مع فارق السن﴾ فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: إنه سيد،[١] ولم يعترض أحد من الحاضرين عليه .

ومعني هذا أنه يصح لنا أن نصف رسول الله ﷺ بلفظ السيادة، لأنه وصف نفسه بها ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ .

قيل للإمام مالك: هل كره أحد بالمدينة قول العبد المملوك لسيده ياسيدى؟ قال: لا... واحتج بقوله تعالى عن سيدنا يحيى -عليه السلام- ﴿وسيداً وحصوراً﴾[٢] والإمام فى هذه الفتوى نهج منهج أبى هريرة ﵁ .

ومعنى كلامه أن من صف بالسيادة يجوز لنا أن نناديه بياسيدى وقد تقدم مايشبه هذا من نقولات فى ﴿دلالة التصريح والمنطوق﴾ .

١- رواه الطبرانى ورجاله ثقات، مجمع الزوائد ٩, ١٨١ .

٢- عمدة القارى على البخارى ٦, ٢٣٨ .

٥- إن السلف الصالح هو الذى وضع القانون الذى يقول ﴿يجوز للمفضول أن يعمل بما لم يعمله الفاضل﴾ .

جاء فى البخارى عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال عمر لأبى بكر: نبايعك أنت، فأنت سيدنا، وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس.[1]

والباحث هنا بين خيارين :

● إما أن يقول بأن المفضول لايجوز له أن يعمل بما لم يعمله الفاضل، فنخطئ الخليفتين الراشدين أبا بكر وعمر[2] رضي الله عنهم الأول بسماعه وعدم إنكاره، والثانى بلفظه ومقاله، ونخطئ معهم جمهرة الصحابة الذين كانوا يسمعون ولاينكرون، لأنه لم يعترض أحد منهم على سيدنا عمر، ويقول كيف تصف أبا بكر بالسيادة، مع أنه لم يصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على حد زعم المعارض، وأبو بكر أفضل منك، فينبغى لك أن تنهج على نهجه ولاتخالفه .

وإما أن يقول إن المفضول يجوز له أن يعمل بما لم يعمله الفاضل، فتنتفى الشبهة .

١- البخارى - الفتح-٨, ٣٠ .

٢- معلوم أننا مأمورون باتباع نهجهما رضي الله عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿اقتدوا بالذين من بعدى أبا بكر وعمر﴾ وقال: ﴿عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى﴾ .

وعليه فيجوز لنا نحن الخلف، أن نعمل بما لم يعمله السلف، الذين هم أفضل منا، فنصف رسول الله ﷺ بالسيادة .

٦- أن لفظ السيادة ليس فيه ما يدل على الغلو وتجاوز الحد، مادام المخاطب به متصفاً بمضمونه من العلم والحلم، والتقوى... ولهذا وصف رسول الله ﷺ به نفسه، ووصف به جمعاً من صحابته الكرام، كما جاء فى الأحاديث التى تقدم ذكرها فى أول الكتاب، ووصف بها السلف الصالح بعضهم بعضاً :

● عن جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب كان يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعنى بلالاً .[1]

● عن عائذ بن عمرو أن سلمان وصهيباً وبلالاً كانوا قعودا فى أناس، فمر بهم أبوسفيان بن حرب -عندما كان كافراً- فقالوا: ما أخذت سيوف الله تبارك وتعالى من عنق عدو الله مأخذها بعد[2] ، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها .[3]

والقارئ لهذا النص يستغرب من الذين يقولون إن وصف

١- البخارى -الفتح- ٨, ١٠٠ .

٢- معناها أنه نجا من القتل بسبب صلح الحديبية .

٣- رواه مسلم فى الفضائل، والإمام أحمد فى مسنده -الفتح- ١٩, ١١٩ .

رسـول الله ﷺ بالسيـادة يعـبر عن الغلـو، لأنه لايعقل أن يجـوز وصف شيخ قـريش وزعـيمـهـا بهـا، ولايجـوز وصف زعـيم المسلمين ورئيسهم .

بل فى الصحـابة من وصف بها زعـيم حى من أحيـاء العرب، ففى الـصحيـحين عن أبى سعـيد الخـدرى رضي الله عنه قال إنطلق نفـر من أصحاب رسول الله ﷺ فى سفـرة سافروها، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فـاستضافوهم، فأبوا أن يضـيفوهم، فلدغ سـيـد ذلك الحى.[1]

● عن عكرمة قال: كـان عمر واقفاً بـعرفات، وعن يمينه سـيـد أهل اليمن، فأتى بشراب، فشرب، ثم ناوله سيد أهل اليمن، فقال: إنى صائم، فقال: أقسمت عليك لما شربت، وسقيت أصحابك.[2]

والبـاحث حين يقـرأ هذه النصـوص وغيـرها، لايقـبل منه أن يفسر عدم استخدام السلف الصالح للفظ السيادة، حين مـخاطبتهم لرسـول الله ﷺ بأن سـببـه ابتـعـادهم عن المغـالاة، لأنه إذا كـان استخدامه يدل على الخـروج عن الحق، فيمنع إطلاقه على كل أحد،

١- اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٢٠ .

٢- منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال، والأفعال، مع مسند الإمام أحمد- ٢, ٣٦٢ .

وإذا لم يدل فأحق الناس به رسول الله ﷺ لجمعه الخير كله بين برديه .

● قال الإمام النووى: لابأس بإطلاق فلان سيد، وياسيدى، وشبه ذلك، إذا كان المسود فاضلاً خيراً، إما بعلم، وإما بصلاح، وإما بغير ذلك..... وقد روينا عن الإمام أبى سليمان الخطابى فى معالم السنن نحو ذلك .[١]

● قال القسطلانى: من خصائصه ﷺ أن سيد ولد آدم، لما جاء فى مسلم مرفوعاً ﴿أنا سيد ولد آدم يوم القيامة﴾ .[٢]

● قال العبدوسى: الصلاة على النبى ﷺ المرتجلة، تزيد فيها سيدنا ومولانا، إذا هو سيدنا ومولانا ﷺ ، وقد نص على المسألة بعينها الإمام الباقلانى فى شرح الحزب الصغير .[٣]

● قال ابن القيم: لفظ سيد الكل، وسيد الناس، ليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة، كما قال: ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ .[٤]

● جاء فى الدر المختار: وندب السيادة: لأن زيادة الإخبار

١- الأذكار ٣١٣-٣١٥ .

٢- الزرقانى على المواهب اللدنية ٥ , ٢٧٩ .

٣- معيار الونشريسى ١١ , ٨١ .

٤- زاد المعاد ٣ , ٢-٦ .

بالواقع هو عين سلوك الأدب، فهو أفضل من تركه، ذكره الرملى الشافعى فى شرحه على منهاج النووى، وذكره غيره.[١]

● قال العقبانى: ذكره صل الله عليه وسلم بسيدنا، بعد ورود هذا الخبر ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ إيمان بهذا الخبر، وكل تصديق بما جاء عن المصطفى ﷺ فهو إيمان وعبادة.[٢]

● قال الوزانى: إن زيادة لفظ السيد حين ذكره ﷺ، وهو إختيار الإمام أبى المظفر الإسفرابينى وشيوخنا، وبه قال عمر بن عبدالبر لأن مراعاة الأدب فيما يتعلق، بجانب رسول الله ﷺ مقدمة، بدليل ما جاء فى الحديث الشريف، الذى أمر فيه ﷺ أبا بكر الصديق ببقائه إماما، فتخلف، وتأخر، فقال له عليه ﷺ ﴿ما منعك أن تثبت إذا أمرتك؟﴾ فقال: ما كان لأبن أبى قحافه أن يتقدم بين يدى رسول الله ﷺ،[٣] ففى هذا الحديث خالف أبو بكر رضي الله عنه الأمر بمراعاة للأدب، وأقره رسول الله ﷺ، فلئن جاز هذا، فجواز مراعاة الأدب مع عدم مخالفة الأمر من باب أولى، لأنه ليس هناك نص من يمنع الإتيان بلفظ السيادة فى حد ذاته، ولو فرضنا وجوده،

١- الصلاة على النبى ﷺ لسراج الذين ٤٢-٤٣.

٢- معيار الونشريسى ١١, ٨١.

٣- معيار الوزانى ٣, ١٠١.

فنتعامل معه كما تعامل سيدنا أبو بكر الصديق ﵁ مع رسول الله ﷺ فنقدم الأدب على الإمتثال .

● واختار صاحب القاموس وصف رسول الله ﷺ بها فى غير الصلاة، وهو ما أفتى به الشيخ زروق فى قواعده، وإلتزم به فى وظيفته .

● وألف الإمام أحمد بن يونس القسطنطينى رسالة فى ترجيح ذكر السيادة فى الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة وغيرها، وهو من أشباخ الشيخ زروق والتتائى .

● قال المحقق أبو العباس الهلالى: استحسان زيادة لفظ السيادة، هو الذى أخذناه عن بعض شيوخنا .

● وأفتى بجوازها الإمام المسناوى، ومحمد بن ناصر، والرصاع، والفاسى، وقال الإمام الحطاب: والذى يظهر لى وأفعله فى الصلاة وغيرها، الإتيان بلفظ السيد. وإلتزم به والده الإمام الكبير فى وظيفته، وعبارته فيها: اللّهم صل علي سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فى النبيين، اللّهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فى المرسلين، للّهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فى لأولين، اللّهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فى الآخرين، اللّهم صل على سيدنا محمد وعلى آل

سيدنا محمد فى كل وقت وحين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين، اللهم صل علي سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد حتى ترث الأرض ومن عليها وأنت خير الوارثين .

- وطلب القاضى ابن عبد السلام -من أئمة المالكية- تأديب من أفتى بعدم جواز قولها فى الصلاة وببطلان الصلاة بها .
- وقال الإمام البرزلى: من أدعى عدم قولها فهو أجهل الجاهلين .[1]

٧- أن وصف غير الله بالسيادة وارد فى القرآن والسنة المستفيضة، والمسلمون حين يدب الخلاف بينهم فى أمر ما مطالبون بالرجوع إلى مصادر الشريعة ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ .[2]

وكل ما فى القرآن والسنة من باب الحق ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ .[3] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾[4]

١- انظر معيار الوزانى ٣, ١٠٠ - ١٠٣ والوظائف الثلاث للشيخ الزروق وعبد السلام والحطاب .

٢- سورة النساء الآية رقم ٥٩ .

٣- سورة فصلت الآية رقم ٤٢ .

٤- سورة الحجر الآية رقم

والحق لايوصف بالغلو، لأن الغلو تجاوز للحد، وتعد على الحق ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ .(١)

فلايقال إن الله قد غالى حين وصف سيدنا يحيى -عليه السلام- بالسيادة ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾(٢) ولا أنه قد تجاوز الحد حين علمنا الجمع بين الأوصاف المتعددة حين التحدث على الشخصية الواحدة ﴿سيداً + حصوراً + نبياً + صالحاً﴾ ولا أن الرسول ﷺ قد غالى فى دينه، حين وصف نفسه بالسيادة ﴿أنا سيد ولد آدم﴾ ووصف بها أبا بكر، وعمر وفاطمة الزهراء، وسعد بن معاذ، والحسن والحسين، وغيرهم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم .

ومن قال بالغلو، فقد حاد عن الطريق، وجانب الصواب، ولو عرف لوازم مايقول، وإلتزم بها، لخرج عن دائرة الإسلام بلاريب، لوصفه مصادر الشريعة بالغلو والبهتان .

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾(٣).

١- سورة النساء الآية رقم ١٧١ .

٢- سورة آل عمران، الآية رقم ٣٩ .

٣- سورة النور الآية رقم ١٦ ، ١٧ .

٨- أنه قد ورد عن السلف الصالح وصف رسول ﷺ بالسيادة فى روايات متعددة، يقوى بعضها بعضاً :

أ- قال الحافظ السخاوى: روى ابن ماجة فى سننه من حديث المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فخاته، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا صليتهم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لاتدرون لعل ذلك يعرض عليه، قولوا: اللهم اجعل صلاتك [١]، ورحمتك، وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمداً عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة . ثم قال الحافظ: أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس له هكذا .

وقال أبو موسى المدنى فى الترغيب له: هذا حديث مختلف فى إسناده «أى إن رفع إلى النبي ﷺ إنه قاله:» والمعروف أنه موقوف «أى من قول الصحابى ابن مسعود» أخرجه ابن ماجه فى سننه، والطبرانى فى تهذيبه، وعبيد فى مسنده، والبيهقى فى الدعوات والشعب، والمعمرى فى اليوم والليلة، والدارقطنى فى الأفراد، وتمام فى فرائضه، وابن بشكو فى القربة .

١- فى بعض الروايات صلواتك .

وإسناد الموقوف حسن، بل قال الشيخ علاء الدين مغلطاى إنه صحيح وتعقب بعض المتأخرين على المنذرى حيث حسنه، بما حصله، كيف يكون حسناً، وفى إسناده المسعودى، وقد قال ابن حبان إنه إختلط بآخره، ولم يتميز حديثه من الآخر، فاستحق الترك.[١]

والجواب أن الأثر ورد فى بعض طرق عند الطبرانى عن الفضل بن دكين، وعند الطبرانى عن عمرو بن الهيثم أبى قطن، كلاهما عن المسعودى، والفضل، وعمرو سمعا من المسعودى قبل إختلاطه .

قال الأستاذ مشهور بن حسن: ومشى ابن معين، وأبو زرعه رواية المسعودى عن عوف، فأرجو أن يكون إسناده حسناً أو صحيحاً.[٢]

● واستدل بهدا الأثر ابن القيم فى كتابه جلاء الأفهام، فى باب ماجاء فى الصلاة على رسول الله ﷺ فى أحاديث ابن مسعود.

● والحافظ السخاوى فى ا لقول البديع، فى باب الأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ .

١- القول البديع ٥٧-٥٨ .

٢- هامش جلاء الأفهام ،لأبن القيم ١١٩ .

● والمحدث الإمام الحجة السبكى فى كتابه «شفاء السقام فى زيارة خير الأنام»

● والإمام الحافظ القاضى عياض فى كتابه «الشفاء» .

● والعلامة الوزانى فى معياره .[١]

ب- أخرج الحافظ عبد الرازق الصنعانى فى كتابه «المصنف» من موسعات الحديث عن أيوب وجابر الحنفى: من قال عند الإقامة ﴿اللّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وأورثه المقام المحمود﴾ حقت له الشفاعة على النبى ﷺ .[٢]

جـ- أخرج أبو عبيد، وابن المنذر، والطبرانى، وابن مردويه، عن عبد الله بن بسر الحرانى قال: رأيت عبد اللّه بن بشر المازنى، صاحب رسول اللّه ﷺ إذا صلى الجمعة، خرج، فدار فى السوق ساعة، ثم رجع المسجد، فصلى ما شاء اللّه أن يصلى، فقيل له: لأى شيئ تصنع هذا؟ قال: لأني رأيت سيد المرسلين هكذا يصنع، وتلا هذه الآية ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ .(سورة الجمعة الآية رقم ١٠)

١- (٣, ١٠٢) . ٢- رقم ١١٩١ . ٣- الدر المنثور ٦, ٢٤٣ .

د- ذكر عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائده على مسند أبيه، عن نضله بن طريف، أن رجلاً منهم، يقال له الأعشى، واسمه عبدالله بن الأعور، كانت عندة أمرأة، يقال لها معاذة، خرج يمير أهله، فهربت أمرأته، واستعاذت بمطرف، فطلبها زوجها عنده، فأمتنع من تسليمها، فخرج حتى آتى رسول الله ﷺ وأنشأ يقول :

يالسيد الناس وديان العرب ∴ إليك أشكو ذربة من الذرب

كالذئبة الغيشاه فى ظل السرب ∴ خرجت أبغيها الطعام فى رجب

فخلفتني بنزاع وهرب ∴ أخلفت العهد ولطت بالذنب

وقد فتنى بين عيص مؤتشت ∴ وهن شر غالب لمن غلب

فقال النبى ﷺ ﴿وهن شر غالب لمن غلب﴾ وذكره ابن عبد البر فى الإستعاب مطولاً، ثم قال: وهو خبر مضطرب الإسناد، ولكنه روى من وجوه كثيرة .

قال صاحب الفتح الربانى على مسند الإمام أحمد فى التعليق على هذا الحديث: له طرق ثانية تؤيده، وسندها صحيح، أخرجها البخارى فى التاريخ، وابن سعد فى الطبقات، وأوردها الهيثمى فى مجمع الزوائد، وقال: : رواه عبد الله بن احمد، ورجاله ثقات .[1]

١- (١٩, ٢٠٥ - ٢٠٦) .

وهذه الروايات جميعاً وغيرها، كالتى ذكرها الحافظ السخاوى فى كتابه «القول البديع» وكالتى رواها أبو داود وسكت عنها فى باب الرقى، يسند بعضها بعضاً، وبعضها صححه المختصون، وهى مع تعددها تنهض حجة فى جواز الإستدلال بها، لاسيما والأحاديث الصحيحة تثبت إتصاف رسول الله ﷺ بالسيادة.

والأجوبة الأولى تغنى عنها وإنما أوردتها لأن النافين ينفون وجودها فى المراجع، ويستبعدون ورودها، استناداً منهم على أن جمهرة القراء غير متخصصين، والمتخصصون كثير، منهم لم يدرسوا فى المعاهد الدينية بنظامها القديم، ولم يتعودوا على قراءة كتب التراث، ولايملكون القدرة على تفهم أساليبها.

وهذا من النذر، لأن تكوين الطالب على قراءة كتب التراث، وفهم المراجع والمصادر القديمة، هو الفيصل فى تقويم الكتب الحديثة، وتقويم أصحابها، ومستوى فهمهم وإلمامهم وإدراكهم .

والواجب على من درس فى المعاهد الدينية أن يقوم بأداء الأمانة للأجيال المقبلة، وتدريس كتب التراث، ولو على المستوى الفردى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾.[١] والأذن

١- سورة النساء، الآية رقم ٥٨ .

الذى أصدرته الأوقاف الذى يبيح التدريس فى خلوات التصوف وأماكنه، يساعد على هذا، والتجربة التي قمت بها تؤكد صحة هذا وتيسره .

والأمر متجه إلى الجامعة الأسمرية آكد من غيرها، فهى القادرة على إرجاع المعاهد الدينية بنظامها القديم، وكتبها القيمة، التى تمكن من إعداد الطلاب الأكفاء فى مجال التخصص الفقهى ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ .[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد سيد الأولين والآخرين

وكان الختام عند الساعة الخامسة والربع
من مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٠٠٠/١٠/٤
ببلد تاجوراء التى هى من ضواحى
طرابلس الغرب .

١- سورة إبراهيم، الآية رقم ٢٠ .

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

رقــم الايــداع بدار الكتب الوطنية
2002 / 4326
الوكــالة الليبيــة للترقيم الدولى الموحد
لكتاب دار الكتب الوطنية بنغازى ـ ليبيـا
I S B N
ردمــك 6ـ258ـ22ـ9959
الطبعـــة الاولـــى

